

لَيْلُ نَوْرَا

قصته سرمد من أساطير القصص الشعرية

للكاتب المتاني برجر

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي

قبلة اللقاء . فجملت
بحسب الصفوف طرداً
وعكساً في كل ناحية ،
وتسائل العائدين ، فما
تقع أحد غلتها بنياً عن
زوجها المحبوب ...
وهاهم أولاء . قد
انصرفوا . فارتعت على

الأرض تمزق شمرها
وتتمرغ مشدوهة هاذية
فبادرت أمها إليها :
« لك الله ! ماذا دهاك
يا بني السكينة ؟ » وضعتها
إلى صدرها

— آه يا أماء ، يا أماء ،
لقد مات ! مات ! عفا
على الدنيا وعلى كل شيء .
لارحمة عند الله . يا للويل !

هذا ضرب من القصص الشعرية ، تدار موضوعاته
على الأسطورة العجيبة أو الواقعة الرائعة ، ويجري
نظمه على لسان من التقاطيع والترديد ، تزيين المعاني
والصور قوة على قوة من التعيين والتوكيد
والشعاع الانان في هذا الخيال لا يسبقهم سابق ،
ولا يلحق بهم لاحق . فلهذا فيه وجدته نصب السبق
وفضل التبريز

وهذه القطعة من أروع الأمثلة في هذا الباب .
ولا يدانيها غير أمثالها في شعر جوتة وشير ، ولها
شهرة كبرى في الأدب العالمي ، وقد ترجمت إلى كل
اللغات عدة مرات ، وأوحى إلى أعلام الرسامين
بدائع اللوحات ، وللكبار الموسيقيين أقوى الألحان

يا ويلتاه !

— كان الله في عونك وعفا عنك ! يا بني ،
إضرعي إلى رب السموات . الخير فيما يفعله . وإن يمنع
عنا غونه

— آه يا أماء ، يا أماء ! إنك واهمة . إن الله
تخلي عني . وهل أغنى ما أسلفت من صلوات أفذاذا
هي مغنية اليوم عني ؟

— اللهم رحماك ! من يعرف الله معرفة اليقين
يوقن أنه لا يتخلى عن عباده . وإن سر القربان
المقدس ما مسح عنك أو جاعك كلها باذنه

— آه يا أماء ! أنى لقربان أن يرد الحياة إلى الوقي ...

في مطلع الفجر
هبت « لينورا » آفة
من أحلام مزججة ،
وهي تسائل نفسها :
« ولهم ، يا زوجي !
أزرى صرعى الردى
ونفذيك سهم القضاء ،
أومال بك الهوى نخت

ميتاق وأخفرت عهدى ؟
أزرى تطول غيبتك إلى
أبعد من هذا : »

فانه في ليلة العرس
نفسها ارتحل الزوج في
ركاب الملك فردريك إلى
ميدان القتال عند مدينة
براغ ، ولم يظالها بخبر
عن صحته من ذلك الحين
ولكن الخصمين الملك

والإمبراطورة تولاهما السكلال من هذه المارك
الدائمة ، وسكنت ثأرتهم مارويداً ، وفي آخر الأمر
عقد الصالح . وارتد كلا الجيشين عائدين إلى
الأوطان بين نفخ الأبواق ورنات الصنوج ،
متوجين بالأكاليل من أوراق الشجر الناضرة

وماجت الطرقات والجسور من كل حدب
بأفواج لا ينقطع فيضها من الشباب والشيب
يهرعون إلى اقيام ، وكم هتف أبناء وزوجات عند
رؤية عائلهم : أن الحمد لله . ورامت كل خطيبة بين
ذراعي خطيبها تغمغم : مرحباً بك ! إلا « لينورا »
— وأسفاه ! فقد انتظرت طويلاً في غير طائل

— مهلاً يا بينتي . فما يدريك ؟ لعله خان ودك وعقد أواصر الألفة بفتاة غيرك فانسيه ، وأعرضي عن ذكره . هلمى ! لن يحسن الله عقباه . وسيكون مثواه جهنم وبئس المصير

— آه ، يا أماء ، يا أماء ، من مات فقد مات . ومن فقدناه فقد فقدناه أبد الدهر . فلم يبق لي غير الردى مورداً . ليتني لم أولد ولم أك شيئاً ! يا شملة حياتي انظفئي ، انظفئي في ظلمات المدم الرهيبة . فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسني !

— اللهم رحماك ! لا تحاسب ابنتي على ما فرط منها . إنها لا تتي ما تقول . فلا تحصبه عليها ذنباً وآثاماً . وأنت يا بينتي ، تناسي هموم الأرض واذكري الله ونعيم السماء . فما يزال زوج في السموات

— آه يا أماء ، ما النعيم ؟ يا أماء ، ما الجحيم ؟ النعيم حينما كان ولهم ، والجحيم حيث لا يكون . انظفئي يا شملة حياتي في ظلمات المدم الرهيبة . فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسني !

وهكذا كانت سورة اليأس الجامع تمزق قلبها وتقرى روحها . فهي تقدح في العناية الآلهية وتنمي عليها . وما زال هذا حالها ، تدق صدرها تفجئاً وارتياعاً ، وتقلب كفيها توجعاً وانتياحاً ، إلى أن جنحت الشمس للغيب ، ودلفت النجوم الزواهر في قبة الفلك

ولكن ... أي حس هذا في جنح الليل خارج المنزل ؟ طق ! طق ! طق ! لكانه وقع سنبلك جواد ... ثم كأن فارساً يترجل عنه فتسمع صاصلة سلاحه ... وهو ذا بصمد درج السلم ... صه ، صه ... الجرس يرن رنيناً رقيقاً ... ثم صوت رفيق يقول من خلال الباب :

— هيا ! هيا ! افتحي يا صديقتي الحسنة ! أساهرة أنت أم نائمة ؟ ومستغرقة في فرحة أم شرقة بالدموع ؟

— ماذا ! ولهم ! أهو أنت ؟ في هذه الساعة المتأخرة من الليل ! لقد كنت ساهرة أبكي ... وأأسفاه ! شدمائت ... ومن أين أنت آت راكباً جوادك ؟

— نحن لا نعتلي الجواد إلا في منتصف الليل . وإلى قادم من أقاصي بوهيميا . وهذا علة وصولي إليك متأخراً لأمضي بك متى — ولكن ، يا ولهم ! ألا تدخل هنا أولاً ، فأنتي أسمع الريح تصفر في الغابة ...

— دعي الريح تصفر في الغابة يا صديقتي الحسنة . فإذا بعينينا من صفير الريح . إن جوادى يفحص الأرض بخوافره ، والمهاجرين في شاكلتيه ؛ وليس في الامكان بقاى هنا . هيا البدي نعلك يا لينورا ، وتعالى اركبي رديفتي على صهوة الجواد ، فأن أمامنا مائة فرسخ تقطعها قبل أن نبلغ إلى مقرنا

— وأأسفاه ! كيف تريد أن تقطع الليلة مائة فرسخ لتبلغ إلى مقرنا ؟ إسمع ، هذه دقات الناقوس تؤذن أيضاً بانتصاف الليل

— واهاً ! واهاً ! القمر مشرقٌ واضح ... وما أمرعنا في السرى نحن الأشباح . وإلى أراهن أن سأصل بك الليلة

— خبرني إذا أين مقرك ، وكيف فراش عرسك ؟ — بعيد . جد بعيد من هنا ... ساكن ، رطب ، ضيق ، يتكون من ستة ألواح كبار واثنتين أصغر حجماً — وهل فيه متسع لي ؟

— لئامعاً ؟ فتعالى يا لينورا . إركبي رديفتي على صهوة الجواد ؛ فإني وليلة العرس مهبأة ، والمدعوون في انتظارنا

فلبست الصبية نعلها ، وبادرت بالخروج ، وقفزت على ردف الجواد ، ولفت ذراعين لها في بياض السوسن حول الفارس الذي تحبه ؛ وانطلق

أخائفـة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق
وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح
أتخافين أشباح الموتى ؟

— أواه ، مالك وللموتى ؟ دعهم فى سلام
— أنظري : أنظري ! أترين الى جانب هاتيك
المشائق أشباحاً تتحرك وهم فى رقة الهواء ينصفها
نور القمر ويديها للاميان ؟ انها ترقص حول عجلة
التعذيب . إيه أيها الأنجاس المناكيد ! تملوا اتبعوني
ولترقصوا فى حفلة عرسى ... إننا ذاهبون إلى وليمة
العرس الزاهرة

فاندفع الرهط كله وراءهم ، ولندافعـه مثل
خشيشة الريح فى الورق الجاف ، وانطلق الجواد
ينهب الأرض نهباً ... والجواد والفارس تكاد
تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتها
واهاً ! ما أسرع تطاير كل شيء ، كل ما يجلوه
ضوء القمر من حولهم ! ... ما أسرع انسياب
السما والنجوم من فوق رؤوسهم !

— أخائفـة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق
وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح ...
— آه يا ربى ! مالك وللموتى ، دعهم فى سلام
— تجلدا يا جوادى الأسحـم ! كأنى بالديك
يصيح مؤذناً بوشك انبلاج النور ، وعمـا قليل
تكون الساعة الرملية قد أفرغت ما فيها ... انى لأحس
نسبات الصباح ... الوحى الوحى يا جوادى ! ...
لقد أشرفنا ، لقد أشرفنا على غاية رحلتنا ...
سينكشف لك فراش عرسنا ... ما أسرع
الأشباح ... لقد وصلنا

واندفع — مطلقاً العنان لجواده — الى باب
حديدى كبير ، وقرعه بمذبة سوطه قرعة خفيفة
فانفضت المزاليج وانفتح الباب على مصراعيه
بصر صريراً . وانطلق الجواد كالشهاب حاملاً

الجواد ركضاً ينهب الأرض نهباً . ودوى وقع
سنابكه . وكان الجواد والفارس تكاد تنقطع
أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتها
واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج
والمزارع بمنة ويسرة أثناء كرها ، وما أشد قعقة
الجسور تحتها !

— أخائفـة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق
وضاح ... مرحى ، كذا تكون سرعة الأشباح
أتخافين أشباح الموتى ؟

— لا ... ولكن مالك وللموتى ؟ دعهم فى
سلام ... ترى ما هذه الضوضاء وهذه الأناشيد ؟
والى أين تنجه تلك الأسراب من الغربان ، صه : ...
هاتيك دقات ناقوس ، وهذه أناشيد جنازة
— إنه ميت عندما يراد دفنه

واقتربت الجنازة وتمالت الأناشيد مرردة
الأصـداء كالنقيق الأجنس فى جنبات المغايض
والمستنقعات

— عليكم بعد منتصف الليل أن تدفنوا الجثة
مشيمة بالنواح والأناشيد المعولة . أما أنا فذهاب
بزوجتى ، وإنى أدعوكم جميعاً الى وليمة العرس .
تعال أيها الرتل ، أنت وفرقتك . تقدموا واصدحوا
بترنيمة الزفاف . وأنت أيها الكاهن لتبارك زواجنا
عندئذ انقطع النواح والأناشيد ... واختفى
النمش ، وسار مشيعو الجنازة وراء العروسين تلبية
للدعوة ... مرحى ! مرحى ! إنهم ليلاحقون الجواد
عن كثب . وانطلق الجواد ركضاً ينهب الأرض
نهباً ، ودوى وقع سنابكه ... والجواد والفارس تكاد
تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتها

واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج
والمزارع بمنة ويسرة أثناء كرها ، وما أسرع تطاير
القرى والساكن والمدن !